أطروحة مندور

بقلم مهدي العبيدي

مات محمد مندور الناقد الباحث صاحب الرأي الحر والفكرة الجريئة تماما وعلى غرار ما يموت الاغمار وشرار الخلق . سوى انا غدونا نتعلل بالخلود لمندور والديمومة لمأثوراته الفكرية الشامخة الباذخة بأن تتداولها الايدي ويقبل عليها الدارسون ويتصفحها طلاب المعرفة والتحصيل . لكن الذي يحز في نفسنا حقيقة ان مندور مات وقد تكون في حلقه غصة وفي صدره آهة حبيسة وثمة لهف وكربة واسف ، ان لم يصادف اكبارا وتقديرا واحتفالا بمؤلفاته ومعطياته ويعي مدى قيمتها لدى معاصريه ايام كان يدرج بيننا نحن الاحياء ويتنفس كما نتنفس ، والان بعد ان مات مندور تنادت الاقلام للاشادة بما اسلفه من اثر وتركه من دوي واسداه للامة والوطن من خدمات جلى ودالات عظيمة . ولا ريب ان الاديب الكبير اذ يقطع من العمر امادا طويلة ليس ادخل بالسرور على قلبه واملأ بالغبطة لوجدانه واعود على فؤاده بالشعور بأن مجهوداته الطائلة لم تذهب هباء او تتلاشى ضياعا او تعصف بها رياح العفاء والتبديد ، انما هي مناط التقدير وموضع التعويل عليها في التماس الفائدة واجتناء النفع ، نقول ليس ادخل ولا املأ واعود على الاديب ذاك بكل هذا من محاولات صادقة لتكريمه واثابته على ما انفق من جهد وبذل من مسعى وقطع من شوط وتحمل ما تحمل من فرط العناء والتعب القاسي ليغزو افهام النابتة الجديدة بالافكار السامية والمنازع الحرة ويدلهم بها على الطريق اللاحب الذي تلزمهم الضرورات الملحة العاجلة بجوسه والتوغل في مفازاته . مات مندور واكاد اجزم انه لم يستدل بدليل ما على مكانته من نفوسنا او يستوثق من شهادتنا الصادقة واعترافنا الجازم الحاسم غير المخاتل او المجامل بقيمة اثره في تطوير حركة النقد الادبي واغنائها ، يتجلى ذلك واضحا في تعريفه بالمصطلحات الغربية الحديثة وتحديد مداليلها بالضبط وعلى وجه الدقة والالحاح لتاريخ نشوئها وظهورها على مسرح الحياة الفكرية في الغرب والتنويه بمن انطبع نتاجهم الادبي والفني بخصائصها وميزاتها ، امثال الواقعية والطبيعية والرومانسية والرمزية وحتى الوجودية والدادية والسريالية ، كما يظهر في تقييمه المنصف الجاد لالوان شتى من النتاج الحديث شعرا وقصة ومسرحية خلال اكثر من ربع قرن ، فراض المواهب المتفتحة على الابتكار والجدة وتحامى بها عن مواضع العثار والنكوص ، ولا ريب في ان ما يدلي به من الاحكام ويرسله من الحجج كله مشهود له باستيحاء الحقيقة ومواءمة الصواب ومعايشة الصحة والسداد واستواء الملكات على جادة من النضج والخصب والعطاء الثرور ، فرأيه على هذا اقمن باحترامه ومراعاته والنزول عليه ، فصاحبه رجل لا يحوم حول حقيقته الصافية ، ثمة مطعن او مغمز ما في التحصيل والسيرة وحتى المسلك الشخصي !! وقلما يتسنى لشخص ما ان يحوز هذا المقدار الطائل من الثقة البالغة برأيه والتعويل ـ الفائق على توجيهه في اقتفاء الطريق الصحيح نحو شق الموهبة وترويض القابلية ، وقلما تسنى ايضا لاديب ان يظفر بهذا الحب العميق الذي محضه به ادباؤنا ومفكرونا في مختلف الحواضر والامصار ، حتى وان تباينوا واياه في المنزع وتغايروا في المشرب وتناقضوا في الوجهات والمنطلقات ، فهو ليس على شاكلة اولاء الناقدين الذين جل ما عرفوا من صنعة النقد أن راموه وسيلة للطعن والتجريح وطريقا للغمز والافتئات وسلما يرقون به الى صدارة التوجيه والتحكم بمجريات الحياة الادبية الضاجة بتصارع القديم والجديد من تيارات الفكر وتطاحن الشيوخ والشباب من الادباء حول الانتصار لقيم جازت مرحلتها ومثلت دورها وغني عن اعتمادها معلما دالا في شعاب الطريق، او التمكين لقيم بازغة جديدة اكثر مواءمة لمتطلبات العصر وتمثيلا لروحه وتشربا بفحواه ، انما لا اميل منه نحو الانعطاف صوب العمل الفني او الادبي وخصه بأوفر قسط من التدارس الجاد والتقصي النافذ ، ليخلص من كل ذلك الى الالمام بفكرة وافية عن موضوعه ومضمونه ، مستوثقا من اجرائه على جادة الفن المطبوع وانطباعه بالابتداع والعمق والنفاذ واكتنازه بما من شانه ان يسلف ثمة اثرا ما في حياة المجتمع الذي يعايشه صاحبه ويدرج في ظلاله ، ويفرغ من كل هاته الجولة الطويلة الى تقييمه بأتم ما يمكن من الانصاف والمحبة ملمحا الى غنائه بالجوانب الوضيئة الطيبة وافتقاده الى الخصائص والشيات الاخرى التي كان يمكن معها ان تستتم له شرائط العمل المكتمل وخصائصه الفذة ، فمندور لا يبخس موهوبا حقه او يغمطه دالته ويندفع في الالواء به عن طريق الادب والفن مزهدا له فيهما صارفا به عنهما ، انما قد يخال ان الثناء على ذوي الكفايات والمواهب اذ يزجي مبرأ من التعالم والمن والخداع ، خير ما يمكن التوسل به لاستحثاثهم على متابعة التحصيل والتدرب والعطاء . ولعل من دلائل اثر مندور في حياتنا الادبية والفكرية ، انه رغم انفتاحه صوب الثقافة الاوروبية الحديثة واحاطته الوافية بآدابها وفنونها ـ والفرنسية منها على وجه الخصوص ـ حيث لم يقف بها عن محصولها من نتاج القرن التاسع عشر والقرن الحالي ، انما تعدى ذلك الى الاستقاء من مصادرها الاساسية ومنابعها الاولى ، فألم بالاداب اللاتينية واليونانية القديمة ، لم يجحد غناء الثقافة العربية القديمة بالعمق والانسانية والاصالة ، بل نبه الى ضرورة التعويل عليها في التجهز لمراس الادب ، فهي ليست من قبيل المخلفات التي ينبغي ان تحفظ في المتاحف انما هي عنده من تراث الانسانية العام الباقي على تقادم العصور والاجيال ، فقد مثلت دورها في تنوير العالمين حين خبا لهب الثقافة اليونانية وتوقفت حضارة اليونان عن رفد الانسانية بالنتاج الخلاق من الشعر والفلسفة والملحمة والمسرحية ، وكذا كان لها فضل ربط الماضي المولي بالحاضر المستجد ، كما لم يستبد به الهوى الجامح وتستعبده العاطفة المندفعة فيشيد بدالة هاته الثقافة على الانسانية على شاكلة مهووسة يشم منها التعصب الاعمى والاندفاع المقيت فيحملها من الاهمية اكثر مما تستحق ويسبغ عليها ما ليس منها بالصميم من السمات والخصائص ، انما يطبق عليها في معرض التقييم مقاييس عصرها ذاك ، آخذا بنظر الاعتبار مرحلتها الزمنية الفائتة وموضعها في مدرج التطور الانساني ، ولا يعول على مقاييس عصرنا واصما اولئكم السلف بالانغلاق وضيق الافق ومحدودية النظرة الى طبيعة الاشياء على غرار ما يفعل بعض المتعالين والمتشدقين بتفقههم بروائع الادب الغربي المعاصر .

اقول بعد كل هذا الاستطراد ان مندور مات دون ان يستوثق بشكل ما من شهادة معاصريه بقيمة اثره وفرط غنائه وعظم دالته عليهم، غير انا نحسب انه كان من كبر النفس وسوائية الخلاق وايثاره اعطاء الحق من نفسه قبل ان يتطلب الاخرين به ويتشدد في حملهم عليه ، بحيث يلتمس لهم المبررات والمسوغات ولا يندفع في اتهامهم بالجحود

ورميهم بالعقوق .

ألمحنا قبل قليل الى ان المرحوم مندور كان قد استقى من الثقافة العربية القديمة ، ولعل اخص ما أسترفد به من مصادر هاته الثقافة العريقة هو مأثوراتها النقدية سواء منها تلكم الكتب الباحثة في اسس النقد ومبادئه ونظرياته والاخرى المشتملة على الدراسات التطبيقية المترسمة لمنهج محدد له منطلقه وغايته وكذلك الدراسات التي تعظم فيها حصة التاريخ ويضؤل فيها جانب النقد اللماح ، وتعتمد اكثر ما تعتمد على الاستطراد والانسياق في سرد السير وتبيان الاطوار والميول وحتى الحوادث الشخصية ، اذ تفتني بالالماح الى المصادر الموثوقة التي استقت منها تلكم الاخبار الشوارد مما قد يورط في الشعور بالاملال والاحساس بالسأم من القلوب على مطالعة تلكم الدراسات المستقصية بالنسبة للنابتة الجديدة التي لم تعد تقوى على الصبر والريث والجدية في التدارس والتحصيل الادبي ، انما قد تؤثر الخطف والعجالة في قراءة النتاج الضحل الذي لا يحوج استيعابه وتشرب فحواه الى مزيد من كد الذهن وشق الخاطر ، او ان النابتة الجديدة قد لا تمتلك فرط مطاولة الجيل السابق على الصبر في اجتلاء النصوص القديمة دون ان يعتريها الضجر وتحس بالاملال فتدعها عنها جانبا زاهدة فيها قانطة منها.

يتبدى على هذا ان استاذنا الفقيد كان قد عكف على مأثور العرب النقدي واسترفد منه وألم بجماع موحياته ووجهاته وكافة اصوله وفروعه ، واحاط بشكل شمولي نفاذ بخلاصة وافية عن دالات اعلامه وافذاذه ، ووعى جيدا ما كان منه مبتدعا جديدا ، وما كان مرتبطا بمآني الثقافتين اليونانية والفارسية التي امتزج بهما العرب ابان قيام دولتهم الاسلامية واتصلوا بمأثوراتها عن طريق الترجمة والنقل ، وكان ان افرغ جماع تحصيله منه بكتاب بدع في بابه هو « النقد المنهجي عند العرب » تقدم به في استهلالة الاربعينات للحصول على شهادة الدكتوراه بعد قفوله من فرنسا بشهادات اخر منها ما يمت الى التشريع المالي والاقتصاد السياسي ومنها ما يمس الاداب اليونانية والفرنسية ، وكأن كل تلكم الشهادات مجتمعة لم تكن تعادل بحسب العرف الشائع المتداول الدكتوراه التي تكفل لحائزها الانخراط في رعيل اساتذة الجامعات ، وكذا خال البعض ان هاته الشهادة العليا قد لا تكلف مبتغيها اكثر من الانصراف لتأليف كتاب والاستغراق في جمع مادته والتأليف بين عناصرها واجزائها ، والتهيؤ لخوض امتحان فيها ، يعول اكثر ما يعول على المناقشة المستأنية والجدل المستفيض يبتدره بهما الاساتذة الممتحنون ليشهدوا له من بعد بجدارة الأمكان ويؤمنوا على اهليته لحيازة اللقب الفضفاض ، وكذا كثر عندنا اصحاب ـ الدكترة ! ـ وتعددت الاطروحات المصنفة ـ المحفوظة ! ـ وما اطروحة محمد مندور من هذا الصنف الشائع ، اذ هي ليست ببنت النقل الطائل والاقتباس الكثير حيث لا ايماء الى المراجع الاساسية والماح اليها وتعريف بها ، انما هي نتاج الكد والمثابرة وثمرة الجهد الخلاق والعمل المضني وحصيلة الاستغراق في اجتلاء المأثور العريق وتفهمه واستيعابه ، بعناية فائقة وذوق رهيف واستقصاء متأن وقدرة عجيبة على التمييز بين المداليل والاحكام وترجيح ارباء هذه على تلك في الدقة والنصاعة والاحكام . وقد لا يضيرها او يشين بها الاقتباس الطائل المنوه عن مواضعه من صحائف الاثار الاصيلة بقصد تمحيصه وتدارسه واجتلاء غنائه من الصحة والسداد واحتفاله بالقيم الفنية وتأمينه عليها ، فقد ترجح حصة النتاج الشخصي الخلاق فيها على حصة النقل والاقتباس . واشهد ان اطروحة مندور قد تغني الدارسين عن مراجعة تلكم الاثار القديمة التي وان تباينت في الموحيات والايحاءات وتفاوتت في الاحكام والمقاييس التي عول عليها النقد القديم واقام عندها طويلا وتغايرت في الانطباعات والمفاهيم من حين لاخر ، بحسب تباين ثقافة الناقدين انفسهم وتفاوتت نظرتهم وتغاير اذواقهم الفنية ، فهي قد تتشابه وتتماثل الى حد بعيد في طريقة السبك واسلوب التأدية وجادة التعبير ، وكان انتفى الميسم الشخصي في كتابات ذويها ، فعبارة

ـ التتمة على الصفحة ٧٨ ـ

اللقاء الذي لم يتم

(الى موعد الاسكندرية .. في صيف عام مضى)

* * *

لو التقينا قبل ان تميل شمسنا الى الغروب
وقبل ان يسير في نهار عمرنا الشحوب
وترحل الطيور عن اغصاننا .. الى الجنوب
خوفا من الشتاء .. والشتاء عالم رهيب

* * *

لو التقينا حينما جئت الي .. من بعيد
والحب في مروج قلبك الرحيب .. طائر سعيد
وباقة من اجمل الازهار .. عطرها جديد
يسكرني .. فينتشي قلبي .. ويطلب المزيد

* * *

لو التقينا مثلما قدرت موعد اللقاء
ولم يكن في الباب قفل ليس يدرك النداء
أكان ظلانا معا سيصمدان للضياء ؟
وطيرنا لا يزمع الرحيل .. ان بدا الشتاء ؟

* * *

أكنت تمشين معي ـ ولست وحدي ـ في الطريق ؟
أكان نور الفجر يبقى .. والضحى له بريق ؟
أكنت أنت يا رفيقتي بقلبك الرقيق
ترضين لذعة الحريق .. دون لذة الحريق ؟

* * *

لو التقينا .. غير اننا ـ بعد ـ لما نلتق
ولم نعش هذا المدى الا على تفرق
فأوشكت صورة حبنا على التمزق
وكم هتفت ضارعا : بحبنا ترفقي

* * *

شاعرتي : من الملوم الآن ؟ انت ام أنا ؟
أم ان حبنا الكبير ضاع .. ضاع بيننا
وحينما ضاع .. رجعنا الان نبكي حبنا
يا دمعنا .. هل ستعيد حبنا .. يا دمعنا

* * *

مهما يكن فاننا لسنا سوى بشر .. بشر
لا .. بل دمى تحركت .. والخيط في كف القدر
اذا انطلقنا .. فالفضاء هوة ومنحدر
وبعده مصيرنا .. وما لنا منه مفر

* * *

ان كان لا يزال لي في قلبك الحاني مكان
فهذه رسالة .. تشتاق مثلها الحسان
كتبتها بأدمع .. من الحنين والحنان
فان أتيت .. عاد لي ما قد مضى به الزمان
كانما عمر الفراق لحظة .. او لحظتان
وان ابيت .. فالمصير ليس لي به يدان
ولم يزل من دمع قلبي .. دمعة .. او دمعتان

ابراهيم محمد نجا

اطروحة مندور

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٧ ـ

يرصفها الاحدي لا تتميز من ناحيـــة النظم والترتيب بين الالفـــاظ واجرائها على قاعدة ما عن عبارة الجرجاني او ابن رشيق ، فلمندور دالة تقديم خلاصة وافية لمآثور كل من اولاء وتحليل طريقته ومنهجه في النقـــد وتحديد موضعه من النـــاقلين المقتبسين المعولين على مجهود سابقيهم او في صف المبتدعين المنهجيين المترسمين لاسس معينة وقواعد متميزة، ويعدو ذلك الى ازجاء مؤاخذاته وانتقاداته الموضوعية حيـــال كل منهم . ناسبا به الى الانطلاق من النظر الموضوعي وتحليله بروح الصدق والانصاف واستهدائه بالثقافة الرشيدة والنفاذ العميق ، او سالكا به في عداد ضيقي الافق من المتزمتين الجامدين الذين تؤثر في احكامهم عصبيات غلاظ واهواء مقيتة وعواطف جماح . ولهذه الاطروحة الفذة دالة تصحيح كثير من المسلمات والاحكام التي شاعت في حياتنا الادبية ردحا من الزمن طويلا ، بعون واسهام جيل الرواد منذ مطالـــع القرن العشرين . فالدكتور طه حسين كثيرا ما يوصي خلل محاضراته ودراساته واقواله المزجاة لكتبة المقالات الصحفية ، ان لا غناء لنـابتة الجيل الجديد من تدارس نقـد الشعر لقدامـة بن جعفر ، واذكر اني اصبت بمثل العدوى السريعة فالزمت نفسي بتدارس ـ نقد الشعر ـ هذا حاسبا اني سأوفي على التحصيل الطائل والمعرفة الوفيرة وارتد منه عن ذوق مصقول ونظر نافذ عميق، فما فرغت منه الا بجملة تحديدات وتعريفات بقواعد البلاغة واسسها ، من البديع وما ينحصر فيه مـــن الجناس والتورية والطباق وقد يتعداه الى الاستعارة ايضا . ومثـــل هذه التعريفات والتحديدات قد يقرؤها طلبة الدراسة الاعدادية في كتبهم المقررة ، غير ان ما يضمنه الدكتور محمد مندور في اطروحته من فصل خاص بقدامة بن جعفر يغـري القارىء المتذوق الذي لا يعتـد بالمقـاييس الشكليـة ويستهدف اول ما يستهدف من الاعمـــال الفنية اتسامها بالصدق وانطباعها على الصياغة الفنية بالتقليل مـن دالـة قدامة بن جعفر على النقد الادبي عند العرب وانهامه بالجمود وضيـق العطف والزهادة في التعويل على تلكم المبـــادىء العامة التي اودعهـا كتابه ، حيث لـــم يعن بالنقد التطبيقي المتميـــز بدراسة الاساليب وتحليل النصوص، فقد التزم بالمنطق الشكلي الجامد وافترض تقسيمات شتى احتذى فيها حذو ارسطو في الركون للتجرد والانفصال عـــن الواقع . ومن هنا كان لتشرب الدكتور طه حسين بالثقـــافة اليونانية وايثاره منها لمنطق ارسطو بعض الاثر في الاعادة لتداول الكتاب ذا بين ايدي القراء والدارسين ، ومثل ما ينجر اليه القارىء بتأثير مطالعة فصل الدكتور مندور عن قدامة من الوقوع تحت هذا الشعور بالازراء ، فقد يعتريه كذلك حيال ابي هلال العسكري مؤلف سر الصناعتين ، اذ اعتبر استاذنا الراحل ظهوره في القرن الرابع الهجري ، بمثابة نكسة اصابت النقد العربي واحياء لطريقة قدامة الجامدة ، حيث عاد به الى البلاغة مجددا ، فشرع الكتاب ثانية وبتأثير شيوع المنطق اليوناني الذي يفترض المقدمات ويعني باستخلاص النتائج منهـــا ، الى التورط في الافتعال والتزويق الصفيقين مترسمين قواعد موضوعة سلفا ، لا تتورع عن تحديد ميزات وخصائص وشرائط كافة الاغراض والانواع الادبيـــة المعروفة انذاك . ومنها وجوه النظم التي يتمرس بمزاولتهـا الشعراء عادة . وكذا يسجل استاذنا علي ابي هلال تبعة « جفاف ينابيع الادب وضياع الاحاسيس والافكار منه وغلبة اللفظية والتكلف » . وكذا يقرن ابا هلال الى قدامة ويجمع بينهمـــا على صعيد واحد ، من افتراض التقسيمات الجامدة والتطبيقات الشكلية التي تلوي بمحتذيها عـــن العفوية المحضة وترتد بها عن طريق التلقائية والطواعية ومزاولة الفن الصحيح المتسم بالصياغة الجمالية لا « التقعر اللفظي » . وقد يكون من قبيل هذا الحد من الشعور بالتقدير والاعتزاز حيال بعض الاعـلام ما يتركه في نفس القارىء ، القسم الخاص بتقييمه لصـــاحب المثل السائر ، ابي ضياء بن الاثير ، المعجب بنفسه النيـاه بغناء ملكـــاته ونضوج كفاياته ، فيجلوه لنا الدكتور مندور باحثا بلاغيا طفت عنـده الروح النظرية التي تلزم بالتعليم والتقنين مقتفيا في هذا النهـــج خطى ابي هلال العسكري ، في الاستقراء والاستقصاء ، بينما قد تكون الصياغة الفنية اسمى من ان تخضع للقواعد والاصول غير ان ذلك لا يمنع الدكتور محمد مندور من ان يسجل لابـــن الاثير دالـــة الابتداع والوضع على خلاف ابن رشيق صاحب العمدة الذي قـــال عنه ابـن خلدون في مقدمته : « ان كتاب العمدة هو الكتاب الذي انفرد بهذه الصناعة ـ يعني النقد ـ واعطاها حقها ولم يكتب احد قبله و لابعده مثله » . فيبين عنه أنه يفتقد الشخصية المتميزة ومراعاة المنهج النقدي الخاص . فهو لا يعدو ان يكون ـ كصنوه الثعالبي صاحب اليتيمة ـ جامعا مصنفا للمعلومات الوفيرة التي تخص الادب والنقـــد وعلـــوم العربية ، الا انه كان حريـا بالمرحوم منـدور ان يشيـد بتقصي ابـــن الاثير لعوامل واسباب انتفاء عنصر الملحمة فـــي الادب العربي القديـم التي قد تنحصر في تقيد القصيدة العربية ـ انذاك ! ـ بالروي الواحد والقافية الرتيبة واحتفاظها بالرنة المدوية والتموسق الخطابي ، دون ان تتعداهما اكثر الى الانفلات من الغنائية التي يجسد فيهـــا الشـــاعر اغراضه الذاتية واهواء نفسه في سرائه وضرائه . كما قد فاته ان يفري بتململ الماح ابن رشيق الى فكرة اشباع المعنى ومعاودة صوغه كرة بعـد اخرى حتى يحيط بشياته واطرافه كافة ، كما يتجلى ذلك عنـد ابـــن الرومي الذي تواثرت لقصائده الى حد ما وحدتهـــا العضوية وتأتت لمفرداته والفاظه مهمتها الوظيفية من بنائها الفني . الا ان ما يدل به في عاطفة المقت والاستهجان لطريقة العسكري الجامدة ويبديه من نفـار وجنف عن منهجه العقيم وحنق على الضرر البالغ الذي اسلفته البلاغة على الادب العربي اذ آلت به على الصنعة والتدبيج والشعوذة العقيمة، كل ذلك قـد صد بـه عـن الشهادة والاقرار لابـن الاثير وابـن رشيق بالاطلاع والتولي عن بعض الاحكام والمبادىء النقدية ، ما دام الاول قد تورط في التقسيم وانجر للتطبيقات المنطقية والقواعد الشكلية ، ومـا دام الثاني ايضا قد جهد في النقل عن غيره كالحاغي واضرابه .

نخلص من كل ذلك الى ان استقراءاته التي يتوسل بهـــا بتدقيق موضوعي وتدارس جاد وذوق مرهف واخلاص عميق نحو لغـــة العرب وآدابها وفنونها ، يلازم ذلك ويرادفه بطبيعة الحال طريقة نافذة فـــي التعبير والتأدية تحكي عن اخلاص الباحث لرسالته وشعوره بأهميـــة موضوعه واحساسه الحاد بجدواه وقيمته فـــي امكان تصحيح المسلمات السائدة واستبعاد القواعد الجامدة المترسخة في حياتنا الادبية والفكرية، قد لا يعفي قارئه من الوقوع تحت ذلـك الشعور الجارف بالحـد مـن التقدير البالغ الذي اعتدنا ان نكنه حيال بعض الاعلام بالنقاد ، فـــي ادبنا العربي القديم ، قبل ان نطالع كتبهم ، انما ننساق لذلك بتأثيـر توجيه ساذج يند عن اديب مسموع الكلمة مرعي المكان او بتأثير نصـح رشيد يصدر عن اخر لتدارس هذا الاثر النقدي او ذاك والتعويل عليه ، ـ وقد يتم هذا ويتنافى الشعور بأهميته والاحساس بخطره بتأثيـــر الايحاء عادة ـ في الايفاء على جادة التحصيل الطائل والثقافة المغنية ، وكثيرا ما يرجىء التوجيه والنصح مجردين من ادنـى تحذير وتوصية ، بضرورة التدارس المستأني والقراءة المتمعنة المحترسة من التأمين علـى صحة كل ما سطره اولئك النقاد وسجلوه وتولوا عنه مـــن الاحكـــام والمسلمات والقيم والمبادىء والتسليم بمعقوليته ورجحان نصيبه مـــن الاصالـــة .

ولو استبعدنا ذلك من محصلتنا من كتاب النقد المنهجي عنـــد العرب ، لصار في وسعنا ان نحيط بتحصيل نافذ يتعلق بأوائل النقـاد الذين قد تحسب محاولاتهم على الدراسة الادبية والبحث التاريخـــي قبل ان تسلك في قبيل النقد الذي هو بحسب تعريف هذا الرائد ، فن دراسة الاساليب وتحليل النصوص ، فثمة تعريف بابن سلام وابـــن

قتيبة وابن المعتز ، فالاول تميز بعدم القدرة على التعليل والاستدلال وتورط في ازجاء العبارات الغامضة التي تحفل بالاحكام الدقيقة المحددة المقبولة . لقد كان السباق الى محاولة تقسيم الشعراء الى طبقات واعتماده كثرة المنظوم وتعدد الاغراض والجودة على التوالي اسسا للمفاضلة والموازنة واشترط للناقد الدربة والممارسة والبراعة في تحقيق النصوص وتفسير الظواهر الادبية ، مما يعد من جملة اوليات الاسس النظرية للنقد ، حتى اذا اوفى بنا على ابن قتيبة المنا معه باكتشافه وتحديده للشعر المطبوع والمتكلف وحيدته عن التفريق بين التثقيف والتكلف فالطبع وحده لا يكفي ، وما كل شعر عني بصقله وتجويده متكلف كذلك ، والشعر على اي حال « صناعة وتجويد لفظي وجهد وارادة وطبع » ، وذا قد لا يورط في الانغلاق والافتعال او يجر الى الاغراق في التكلف والمخاريق اللفظية ، وزهير والحطيئة ، هما بعد غير ابي تمام ومسلم بن الوليد ، وبالنسبة لابن المعتز ، فاستاذنا يؤثر المهاودة في محاسبته وانتقاده على خلاف صنيعه نحو قدامة ، فسليل الخلفاء رغم انه انجر ايضا الى تقديم القواعد العامة الا انه يؤمن على مجهوده في البحث عنها وتحديد مواضعها من آي القرآن الكريم والحديث النبوي وشعر العرب عامة ، فدلل بذلك على المنحى التاريخي في النقد، ومفاد ذلك ان الم ابن المعتز الى ما احتفل به الشعر العربي الجاهلي والاسلامي من اوجه البديع بشكل عفوي لا اثر للصنعة والكد فيه على غير مألوف ابي تمام من التكلف والسرف والاغراق .

وليس وكد المقال ذا ان يعرض بالتحليل لكل ما اندرج في الاطروحة الفذة واشتملت عليه من التعريف والتحديد ، غير انا لا نرى اخلق بالتناول اليسير من تحليله الجاد العميق لكتابي الموازنة بين الطائيين للحسين بن بشر الامدي المتوفي عام ٣٧١هـ . والوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني المتوفي عام ٣٩٢هـ . فهما عنده كتابان منهجيان مترسمان قواعد واصولا نقدية معينة .

فقد يدخل الاول ضمن ما تعارفنا على تسميته في دراساتنا الحديثة بالنقد المقارن ، بينما يدخل الثاني في حيز الانتصاف للمتنبي من افتئات سابق عليه ولجاجة في ذمه من قبل ناقدين لم يلزموا ذواتهم بالنظر الموضوعي والتقصي الجاد وتغليب جانب السداد والتبصر وحتى العدل والرحمة على جانب الهوس والاندفاع والامعان في التخرص والتجني . وقد شهد للاول بمنهجيته وموضوعيته وأمن على ريادته للنقد الموضوعي والمقارنة بين بيت واخر ومعنى واخر ، وتعفية الرأي الشائع بترجيح شاعر على اخر بشكل اعتباطي ومن وجهة عامة مطلقة ، مستقريا معرفته بما قيل قبله وشاع من الاحكام والمبادىء والحاحه بوجهات النظر المتباينة وفهمه الدقيق لها وتشربه بفحواها وايثاره العدل بينها قبل ان يخص احداها بترجيحه وتأمينه على صحتها .

وخلل هذا التحليل الدقيق يسترعي نظر القارىء المتفحص خطرات هذا الرائد وفلذاته النقدية التي ينثرها عبر تحليله واستقصائه بشكل عفوي وبلا ادنى مجهود او افتعال ، وقد لا يفطن لها خلل السياق الا بعد مزيد من التمهل والتريث في القراءة ، فانت تحيط علما منه بميزات الشعر الصحيح التي قد تنحصر بحسن المواتاة وقرب المأخذ واختيار الكلام ووضع الالفاظ في مواضعها ، وقد تلم كذلك بتدليله على اهمية الصياغة في الاد باذ يقرن رأي الامدي القائل : « ان حسن التاليف وبراعة اللفظ يزيد المعنى المكشوف بهاء وحسنا ورونقا حتى كانه قد احدث فيه غرابة لم تكن وزيادة لم تعهد » ، الى رأي معظم نقاد أوروبا اليوم الذين يرون « انامر المعاني في الشعر ثانوي بالنسبة الى الصياغة » ، فذا كشف رائع خطير ليس ادل منه على دالة العرب في النقد وسبقهم للنقاد الاوروبيين المعاصرين في اجتلاء اهمية الصياغة في الادب ، واستاذنا لا يدع هذا النص المنسوب للامدي دون ان يوسع فيه ويفصل حوله ويضيف اليه ، فيستنبط منه ان اللغة في الادب ليست وسيلة خادمة للفكر والاحساس فحسب بل هي الى جانب هذه الوظيفة الاساسية غاية في ذاتها ، والكاتب او الشاعر الماهر هو من يفطن الى هذه الحقيقة ويكون من حسن الذوق وسلامة الحس بحيث يقيم النسب الدقيقة بين اللغة كوسيلة واللغة كغاية في الادب . فلا يسرف في اعتبارها وسيلة لانه يحرم بذلك من عناصرها في التاثير عناصر التصوير وعناصر الموسيقى ، وكذلك يحذر من ان ينظر اليها كغاية فيأتي ادبه وشعره وقد غلبت عليه اللفظية وخلا من كل مادة انسانية فكرا واحساسا . والناقد لا يدل في مسألة كهذه على حدود وليس في قدرة احد ان يعلم الاخر متى ينتهي عمل الوسيلة في اللغة ومتى يبدأ عمل الغاية . ومشكلة كهذه لا يمكن ان تحل نظريا وانما يكتسب الانسان احساسا صادقا بحدودها بكثرة المران على النقد والنظر في مؤلفات كبار الكتاب والشعراء الذين نجحوا في هذا السبيل » . ومثل هذا الاستنتاج القيم يستحق اعتباره نصا نظريا نقديا هاما يمكن الانطلاق منه والركون اليه في تقييم الاثار الادبية وارسال الاحكام المنصفة بصددها .

واذ نعدو ذلك الى القسم الخاص بالمتنبي ، نلفيه يستعرض عناصر ووقائع الخصومة حول المتنبي ، ولا ريب فالمتنبي شاعر عظيم كان انى حل واني سار يستجد حول شاعريته جدل عنيف ونقاش حاد بين معجب منحاز ومستهجن مصروف بنفسه عنه ، فكن له انصار ونافسون ، في حلب والفسطاط وبغداد وارجان ، واستاذنا اذ يلم بدقائق هذه الخصومة المحتدمة لا ينسب بها الى الاختلاف حول مذهب شعري بل هي في شرعه (حول شاعر اصيل) آدته مفارقات الحياة ونالت منه طوارقها القاسية فتركت في اهابه جراحا عميقة بعد ان جاب المرابع والامصار مغالبا فشله وخيبته موطنا ذاته على معاودة السعي في سبيل مطمحه وبغيته . وكذا نتعرف على اسماء الحاتمي والصاحب بن عباد وابن وكيع وابن خزابه وابن لنكنك ممن حاولوا الاستلال من المتنبي والغمز من شاعريته. كما يستعرض الخصومة التي دارت حول المحدثين : طه حسين واحمد امين وعبد الوهاب عزام ، وهنا تتجلى براعته في الاستقصاء ودقته في الاستنتاج ونفاذ نظرته في المقابلة ، ولا سيما خلال تصديه لمناقشة المرحوم احمد امين حول نفيه لتاثر المتنبي بمنطق المتكلمين والفلاسفة وكل هذا الاستعراض لاطراف الخصومة قد يعد بمثابة تقديم لتحليله الجاد لكتاب الوساطة ، ومؤلفه قاض نزيه ، وكذا ابان صاحب النقد المنهجي عن اثر المهنة في تكييف احكامه في النقد ، فهو ابعد عن الجور والتحامل وادنى الى التحلي بالانصاف والمروءة والاحتكام الى الذوق المرهف والمنهجية الدربة وحتى المعرفة بعناصر الخلق الفني ، ولعل اخص ما سجله للجرجاني من الدالة النقدية هو معرفته الذكية بعلاقة الاسلوب بصاحبه ، على غرار ما تعارفنا على تسميته والاصطلاح عليه في ايامنا هذه من ان الاسلوب هو الرجل ، فهذه القولة التي باتت من الاتسام بالصحة والواقعية نرى ان الجرجاني سبق بها النقاد المحدثين من العرب والافرنج ، على ايامنا هذه ، اذ يقول :

« ان القوم يختلفون في الاسلوب وتتباين فيه احوالهم فيرق شعر احدهم ويصلب شعر الاخر ، ويسهل لفظ أحدهم ويتوعر منطق غيره ، وانما ذلك بحسب اختلاف الطبائع وتركيب الخلق ، فان سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع . ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلقة ، وانت تجد ذلك ظاهرا في اهل عصرك وابناء زمانك . وترى الجافي الجلف منهم كز الالفاظ معقد الكلام وعر الخطاب ، حتى انك ربما وجدت الفاظه في صوته ونغمته وفي جرسه ولهجته » .

لم يكن وكدنا حقيقة من هذه المقالة اليسيرة استعراض موضوعات اطروحة استاذنا الراحل بالتفصيل ، والتقصي في عناصر مادتها الوافية ومكونات موضوعها الهام ، والابانة عن سمات طريقته في البحث والتحليل وارسال الاحكام الموضوعية انما رمنا بها كلمة متواضعة تكون بمثابة دمعة وفاء لمربي اجيالنا الادبية ومتعهدها بالرعي والنماء وحسن التوجيه، لكنما جرنا الاستطراد ، فملنا الى التطويل بعض الشيء ، وكان من المؤمل ان نقتصد في القول ، ولا مراء فمندوز عزيز غال ودالته في التنبيه الى عراقة التراث النقدي واصالته احرى بالتثمين والاحتفال .

بغداد — مهدي العبيدي